

سبتمبر / أيلول 2015

الوضع الاجتماعي في جنوب سوريا "درعا والقنيطرة"

غازي دحمان*

تنطوي منطقة جنوب سوريا على جملة من الظواهر المميزة بما يجعلها مادة دراسية مهمة، وبالإضافة إلى موقعها الجغرافي كجسر رابط بين دول إقليم بلاد الشام الأربع، فهي أيضاً بوتقة إنصهرت فيها ديانات وأعراق ومذاهب وتعايشت تحت ظل راية الانتماء الحوراني وأنتجت حالة منسجمة جسديتها منظومة القيم والثقافة وحتى اللهجة الواحدة، مع الإحتفاظ بخصوصيات التنوع وجماليته وفسح المجال لإبرازه.

وسلّطت حادثة إنطلاق الثورة السورية من هذه البقعة الضوء عليها، لكن يوميات الثورة وأحداثها فرضت نمطاً للتعامل معها يركز على الحداثي والراهنى على حساب الأبعاد الأكثر عمقاً في هذه البيئة والتي تعطي قدرة تفسيرية أكبر لواقع هذه المنطقة.

لذا تحاول هذه الدراسة التركيز على الأبعاد الاجتماعية والإقتصادية والسياسية، لتفسير كيف أنتجت هذه البيئة الحدث الثوري، ومحاولة الجواب على سؤال أساسي، وهو هل تستطيع هذه البيئة من خلال ما تملكه من مقومات ليس فقط الإستمرار بالثورة ولكن الصمود في وجه الحملة الشرسة التي تتعرض لها بشكل ممنهج وخاصة لوقوعها على خريطة أهداف الثلاثي: نظام الأسد - إيران - حزب الله، بالإضافة إلى تماسها مع إسرائيل التي لها مطامع قديمة في هذه المنطقة؟

لا تدعي هذه الورقة إحاطتها بكل تفاصيل الوضع في منطقة جنوب سوريا، بقدر ما هي محاولة لمعرفة طبيعة المجتمع والتفاعلات الحاصلة فيه وكيفية إدارته للمرحلة الراهنة وكذا طبيعة القوى الفاعلة والمؤثرة، ومحاولة توقع المسارات التي ستسلكها تطورات المرحلة القادمة، ودائماً إنطلاقاً من تفاعل الأبعاد المشار إليها.

وتجدر الملاحظة أن السبب في دراسة الأوضاع في منطقة الجنوب نابع من تقدير ان هذه المنطقة سيكون لها دور مؤثر في صناعة مسارات تطورات الأحداث في سوريا والإقليم الشامي إنطلاقاً من حقيقة أن من يملك جنوب سوريا يصبح طرفاً مؤثراً في تفاعلات المنطقة، وهذا ما يفسر شراسة الصراع على هذه المنطقة.

مقدمة

يتعرّض الجنوب السوري اليوم لحرب ممنهجة تقودها ما تسمى بـ "قوى الممانعة" في المنطقة، وذلك لغايات جيواستراتيجية معينة، لبعضها علاقة بخلق طوق يزّنر الخليج العربي وعزل سوريا عن بعدها العربي من جهة الأردن، ولبعضها علاقة بخلق نقاط تماس إيرانية مع إسرائيل بهدف تقوية أوراق تفاوض إيران الإقليمية.

وإذا كانت الدراسات في هذه الفترة تركّز على الوضع العسكري وظروف القتال في هذه المنطقة، فإن الواقع الاجتماعي الذي يشكل الحاضنة والرحم المولد لهذه الظاهرة "جبهة جنوب سوريا" غالباً ما يبقى معتمداً عليه ولا يحظى بأي جهد بحثي.

وتحاول هذه الورقة تسليط الضوء على الواقع الاجتماعي من زوايا عدّة في محاولة لاستشراف مأل الصراع في هذه المنطقة وما إذا كانت ستصمد أمام هذه الهجمة انطلاقاً من المعطيات السكانية والاقتصادية باعتبارها روافد دعم للثورة المسلحة ضد نظام بشار الأسد وحلفائه، أم تستطيع تلك القوى اختراق هذه المنطقة كذلك من عوامل الضعف الكامنة في بنية تلك العناصر؟

العائلة الجنوبية "عشائر الجنوب"

يرى باحثون وناشطون في حوران أنّ المجتمع الجنوبي عائلي أكثر منه عشائري، ذلك أنّ مفهوم العشيرة يعني أعداداً بشرية هائلة بينما هناك أسر متعددة في السهل لها امتدادات عشائرية في الخارج لكنها في الداخل تتركز في منطقة محدّدة لكل منها، يُضاف إلى ذلك البيئة الريفية والزراعية للمنطقة والتي تمحي الكثير من عالم البداوة، وكذلك سلطة كبير العائلة القادر على حل المشكلات الداخلية ولم الشمل و دعم من حلت به نكبة من أفراد الأسرة الحورانية.

في حوران - وباستثناء عدد محدود من العائلات الكبرى - لا يتجاوز عدد أفراد العائلة الحورانية الصغيرة بضع مئات وليس لها خريطة ارتباط أوسع على مبدأ الأفخاذ. وبينما تنتشر العائلات الكبرى في المنطقة الشرقية ومركز المدن، نجد تجمّع العائلات الصغيرة في ريف درعا الغربي، وينطبق هذا الأمر على ريف القنيطرة المحاذي.

وفي القنيطرة يمكن ملاحظة وجود العشيرة بشكل أكبر ولاسيما المناطق التي لا تزال محتلة من قبل إسرائيل. فقد انتشرت عشائر عربية ما بين فلسطين والجولان والأردن، ينطبق عليها وصف العشيرة لما لها من امتدادات وأفخاذ، وكذلك منظومة قيمية وعادات وتقاليد متشابهة.

لذلك ستميّز في هذا البحث بين نمطين من التشكيلات الاجتماعية في جنوب سوريا، بين العائلة بوصفها النمط الغالب في درعا وريفها وبين العشيرة التي تتواجد في بعض مناطق القنيطرة. مع ملاحظة أن مناطق سكن الجزء الأعظم ممن يطلق عليهم عشائر الجولان تقع في الجزء المحتل وهم في عداد النازحين، الأمر الذي ساهم بدرجة كبيرة في تفكيك الطابع العشائري جراء انخراط هذه المكونات في

المدن وابتعادها عن نمط حياة العشيرة، في حين أن من بقي في الأجزاء التي عادت لسوريا هم أقرب للنمط العائلي الموجود في درعا.¹

التركيبة الطائفية والعرقية

تنطوي منطقة جنوب سورية على تركيبة طائفية وعرقية متنوّعة، وذلك بحكم عوامل تاريخية ساهمت في إثراء هذا التنوّع.²

❖ درعا

يشكّل العرب السنّة غالبية سكان درعا ويتوزعون في كامل المحافظة، ويعودون في غالبيتهم إلى عشائر عربية توزعت على مناطق بلاد الشام. ورغم عدم وجود إحصائيات دقيقة إلا أنّ نسبتهم تتجاوز الـ 90 بالمئة من السكان.

ويأتي المسيحيون في الدرجة الثانية، وتعود أصولهم إلى قبائل مسيحية سكنت المنطقة تاريخياً "الغساسنة". وقد تقلص وجودهم بشكل كبير نتيجة انخفاض نسبة المواليد بينهم مقارنة مع سكان المنطقة، بالإضافة إلى الهجرة للعاصمة دمشق أو إلى بلاد الاغتراب.

ويتواجد الشيعة في بعض قرى درعا. وأغلب التشييع الذي حصل في درعا هو نتيجة وجود بعض العائلات الشيعية قديماً ولكنّها لم تعلن عن نفسها إلا في السنوات الأخيرة، فضلاً عن ظهور حركة تشييع حديثة، إذ تؤكد تقارير بهذا الخصوص أن ملامح التشييع الإيراني في محافظة درعا ظهرت منذ عشر سنوات على الأقل، ولعبت المستشارية الثقافية الإيرانية في دمشق دوراً مهماً على هذا الصعيد مستفيدة من غض طرف الجهات المسؤولة في المحافظة وتقديم الإغراء المالي.³

❖ القنيطرة

في القنيطرة تبدو التركيبة السكانية أكثر تعدداً من الناحيتين الطائفية والعرقية، وإذا كان العرب والسنّة يشكّلون النسبة الأكبر فإن القنيطرة وريفها تضم تشكيلة طائفية وعرقية متنوّعة.

¹ - طارق العبد، الفرعة وإشكاليات عشائر سوريا في ميزان الصراع، جريدة السفير - 2013/01/17-

² - تفتقر المكتبة السورية وجود دراسات موثقة حول العشائر والطوائف لأسباب سياسية حيث كان النظام يمنع مثل هذه النوعية من الدراسات والأبحاث، وغالباً يعتمد الباحثون على التقصي والشفاهة لمعرفة المزيد حول هذه المكونات لجهة تعدادها وانتشارها.

³ - موقع البنية، التشييع في درعا ملخص تقرير نشره مركز الدراسات الإسلامية في بريطانيا حول التشييع في محافظة درعا.

• الدروز

يوجد في القنيطرة العديد من القرى الدرزية، سواء في الجانب المحرّر أو في الجزء المحتل من الجولان، فقد سكن دروز الجولان عند سفوح جبل الشيخ وبنوا قراهم هناك بما يشكّل حلقة مع سلسلة تواصل مناطقهم في فلسطين ولبنان وسوريا،⁴

• التركمان

ويقدّر عدد التركمان في الجولان بحدود 40 ألف يقطنون اليوم في دمشق بعد نزوحهم من قراهم واحتلال أراضيهم بعد حرب عام 1967، ضمن أحياء سميت بأسمائهم وقليل منهم سكنوا في حمص وحلب.⁵

• الشركس

ويعود أصلهم إلى قفقازيا في روسيا وهم لايزالون محافظين على تقاليدهم ولغتهم، وهم من المسلمين ويتحدثون العربية بطلاقة.⁶ وبعد انطلاقة الثورة السورية وتباين مواقف الشركس منها، نزح أغلب أبناء قرى القنيطرة إلى مناطق قرب دمشق. وتعمل الجمعية الشركسية العالمية على إعادة توطين جزء منهم في روسيا لاسيما أن عددهم الإجمالي في سوريا يناهز الـ 150 ألف نسمة، ويرفض الكثير من الشركس مغادرة سوريا.⁷

• العلويون

هاجروا من شمال سوريا في أيام حكم السلطنة العثمانية وأسّسوا ثلاث قرى لا تزال تحت الاحتلال، ويقيمون في أحياء في مدينة دمشق.⁸

علاقات الترابط والتداخل

تنوزع العشائر السورية على مختلف مناطق البلاد، بدايةً من أقصى الشمال الشرقي في الجزيرة ووادي الفرات وصولاً إلى البادية وحمص وحماه وريف دمشق، وحتى الجنوب في سهل حوران وجبل العرب. ولجميع هذه العشائر صلاتها وامتداداتها إلى الجوار لاسيما العراق والأردن. وتصل امتدادات بعض

⁴ - فريال ابو فخر : أبو عسلي.. أبو فخر.. أبو عساف.. من أين جاءت مفردة " أبو " إلى عائلات جبل العرب؟، مجلة الأزمنة، 14- 3- 2010

⁵ - محمد خير عيد: عيون الزمان لمن سكن الجولان من عشائر التركمان، دمشق، مطبعة تركماني، 2004، ص ص 101- 137

⁶ - موقع الجولان الإلكتروني، محمد بدران، مدينة القنيطرة زهرة الجولان. تاريخ المشاهدة، 9-9-2009
https://www.google.jo/url?sa=t&rct=j&q=&esrc=s&source=web&cd=1&cad=rja&uact=8&ved=0CCEQFjAAahUKEwipwMjUwu_GAhXGqx4KHZJvDJA&url=http%3A%2F%2Fwww.jawlan.org%2Fopenions%2Fread_article.asp%3Fcategory%3D81%26source%3D5%26link%3D1939&ei=a_WvVannKMbXepLfsYAJ&usg=AFQjCNEaIAS_v-CT3GxwR2RXq6XiNfFRmQ

⁷ - موقع أورينت نيوز، ياسر الأطرش: هل حان موسم هجرة الشركس الى الشمال؟ - تاريخ المشاهدة، 22- 1- 2013

[https://www.google.jo/url?sa=t&rct=j&q=&esrc=s&source=web&cd=1&cad=rja&uact=8&ved=0CCEQFjAAahUKEwiYq-KXwu_GAhULox4KHZkpBN0&url=https%3A%2F%2forient-news.net%2Findex.php%3Fpage%3Dnews_show%26id%3D1636&ei=7PSvVZiFCovGepnTkOgN&usg=AFQjCNGO8oZm9OuRhwI0ccB_aMu2v4bdKaw](https://www.google.jo/url?sa=t&rct=j&q=&esrc=s&source=web&cd=1&cad=rja&uact=8&ved=0CCEQFjAAahUKEwiYq-KXwu_GAhULox4KHZkpBN0&url=https%3A%2F%2Forient-news.net%2Findex.php%3Fpage%3Dnews_show%26id%3D1636&ei=7PSvVZiFCovGepnTkOgN&usg=AFQjCNGO8oZm9OuRhwI0ccB_aMu2v4bdKaw)

⁸ - موقع الجولان الإلكتروني: أيمن أبو جبل - العجر قرية سورية محتلة طواها النسيان- تاريخ المشاهدة، 13- 10- 2005

https://www.google.jo/url?sa=t&rct=j&q=&esrc=s&source=web&cd=1&cad=rja&uact=8&ved=0CCEQFjAAahUKEwJHrpbewe_GAhVC1B4KHV7SCDs&url=http%3A%2F%2Fwww.jawlan.org%2Fopenions%2Fread_article.asp%3Fcategory%3D2%26source%3D8%26link%3D189&ei=c_SvVYepF8Koe96ko9gD&usg=AFQjCNFhMuB5qol7_OgHKIrYUyJKECt0w

القبائل حتى السعودية. كما يحتفظ العديد من أبناء جبل لبنان بأصولهم في جنوب سوريا حيث لا تزال هناك أواصر متبادلة في ما بينها.

وقد ساعدت علاقات الترابط والتداخل تلك في إيجاد علاقات اعتماد وتبادلية في الكثير من المسائل المعيشية والتضامن زمن الأزمات وتدعيم أواصر العلاقة بين الجماعات على الحدود وفي الدواخل، وقد حصل هذا الأمر عبر عمليات تاريخية طويلة وسلسلة من الأحداث الاجتماعية والظروف البيئية.

وقد أدت عملية نشوء الدول في المنطقة في فترة ما بعد انتهاء حكم الدولة العثمانية وإعادة صياغة الكيانات والوحدات السياسية إلى حصول انزياحات كبيرة على مستوى جغرافية توزع المكونات الاجتماعية. وقد ظهر ذلك بشكل جلي في جنوب سوريا حيث تشكل ملتقى بين أربعة دول هي سورية وفلسطين والأردن ولبنان، كما تملك طرق مواصلات سهلة باتجاه الجزيرة العربية، وكانت بفضل خصوبتها وكثرة المراعي وتوفر المياه منطقة جاذبة للهجرة والترحال.⁹

ولا يقتصر الأمر على المكون السنّي في هذه المنطقة، ذلك أن عمليات التداخل والترابط موجودة لدى المسيحيين بشكل أكبر وأكثر انتشاراً، إذ أنّ غالبية من مسيحيي الأردن هم من أصول حورانية ولا يزال قسم من عوائلهم يقيم في قرى سهل حوران، ويطلقون على بعضهم صفة أبناء العمومة، كما أنّ للشركس والتركماني تداخلات عائلية وروابط قري في الأردن. حتى الدروز الموجودين في منطقة الأزرق ومدينة الزرقاء الأردنية هم فروع من أصول موجودة في الجنوب السوري.¹⁰

الوضع الاقتصادي

من الناحية الشكلية، يتعايش نوعان من الاقتصاد في جنوب سوريا، اقتصاد يعتمد على تحويلات العمالة في الخارج، واقتصاد يقوم على الزراعة وأنشطتها. وجغرافياً، يشكّل طريق أوتوستراد درعا الحد الفاصل بين هذين الاقتصادين، ففي المناطق الشرقية من حوران تقل نسبة الأمطار ورغم الملكيات الكبيرة نسبياً مقارنةً ببقية المناطق إلا أنّه نتيجة لسنوات الجفاف الدورية فإن الزراعة تكاد تختفي من هذه المناطق.

كما أنّ العمالة الزراعية هاجرت منذ ستينيات القرن الماضي إلى دول الخليج لاسيّما الكويت، وقد اندمج بعضهم بحكم روابط النسب والقربى مع بعض عشائر الخليج، وكان لهذا الوضع أثره في الارتباط بالسلطة والإقبال على الوظائف العامة في الدولة والذي كان ضعيفاً على العموم بسبب وجود البديل الخليجي. كما كان له أثره في التنمية التي حصلت في هذه المناطق حيث ظهرت بوضوح علامات الرفاهية، كما بدت تظهر علامات انتشار نمط الحياة الخليجي في اللبس والمأكل وتقليد اللهجة وحتى نمط التدبير الإسلامي.

⁹ - موسوعة العشائر الأردنية. " موقع الكتروني "

https://www.google.jo/url?sa=t&rct=j&q=&esrc=s&source=web&cd=4&cad=rja&uact=8&ved=0CDUQFjADahUKEwji5DEwO_GAhVLh4KHYlyAK8&url=http%3A%2F%2Fwww.7-jo.com%2Fshowthread.php%3Ft%3D140616&ei=MPOvVe-zE8useInlfgK&usg=AFQjCNFzO1d4DkFEchke0CCj9AF1OWZgg

¹⁰ - أنساب العائلات والعشائر الأردنية. " موقع الكتروني "

https://www.google.jo/url?sa=t&rct=j&q=&esrc=s&source=web&cd=5&cad=rja&uact=8&ved=0CDsQFjAEahUKEwji5DEwO_GAhVLFh4KHYlyAK8&url=http%3A%2F%2Fwww.jo1jo.net%2Fvb%2Fjo1jo4140.html&ei=MPOvVe-zE8useInlfgK&usg=AFQjCNHZKcJxGfoZUAn1LRR0dpnuaUB-Dg

أما في المنطقة الغربية حيث الأرض أكثر خصوبة وتوفّر الوديان وعبور نهر اليرموك فقد بدأ الاقتصاد المرتكز على الزراعة أكثر نسبيًا وبدأت الناس أكثر ارتباطًا واحترافًا للزراعة. ويمتد هذا النشاط إلى مناطق القنيطرة. ونظراً لصغر الملكيات في هذه المنطقة وكثرة الورثة فقد جرى التعويض عبر الانخراط بشكل أكبر ضمن أطر الدولة ووظائفها، وقد ساهم في هذا المجال الإقبال الكبير على التعليم، حيث شهدت هذه المنطقة أعلى معدلات من المتعلمين في سوريا.

وثمة أمر مهم يتوجب التعرّيج عليه لفهم حقيقة التشكيلات الاجتماعية الاقتصادية في هذه المنطقة، فقد شكّل قانون الإصلاح الزراعي وإعادة توزيع الأرض نقلة مهمة ومتغيراً سيكون له أثره الواضح في إعادة تشكيل علاقات القوة والسيطرة لما نتج عنه من إعادة توزيع مصادر الثروة، وإعادة صياغة الواقع الاجتماعي برمته.

والمعروف أنّه في عهد ما قبل التأميم كان يسود حوران والقنيطرة النمط الإقطاعي في العلاقات الإنتاجية، وهو نمط من الإقطاع المتخلف الذي يعتمد على مبدأ التلّزيم، حيث كان يلتزم واحد من الأعيان الذين تضعهم السلطات المركزية في دمشق بدفع الجباية عن القرى التي يجري تلّزيمه بها. وقد كان هذا النمط مرهقاً للفلاحين لأنّه لا يترك لهم سوى القليل من إنتاجهم الذي يذهب في أغلبه للمركز والأعيان الذين تختارهم السلطة.

وبما أن اقتصاد سوريا في ذلك الحين كان يعتمد على الزراعة بشكل كلي فإنه لم يكن ممكناً الحصول على الثروة من خارج هذا النشاط. وفي بيئة فقيرة ولا تملك فائضاً يزيد عن حاجتها الأولية في تأمين الغذاء، لم يكن ممكناً ظهور مهن رديفة باستثناء ما تعلق بالنشاط الزراعي، كحذاء الخيل أو صناعة المحاريت أو ورشات طحن القمح.

وقد شكّلت عملية توزيع الأرض على الفلاحين بداية تغيير مهم في حياتهم. فقد جرى انتزاع جزء من أراضي كان يحتكرها الإقطاعيون في المدن ووكلائهم في الأرياف، وقد أدت عملية توزيع الأراضي إلى حصول الفلاحين على حصص مقبولة تبدأ من الحد الأدنى 50 سهماً فما فوق، مع ملاحظة أنّ من كان ينتسب إلى حزب البعث حصل على حصص أكثر قليلاً. ولعل هذا ما يسלט الضوء على التشكيلة الاجتماعية والاقتصادية التي أقامها حزب البعث في هذه المنطقة.¹¹

على العموم ساهم هذا المتغير في تحسين الوضع الاقتصادي والمعيشي في المنطقة، إضافة طبعاً إلى تحسين الخدمات من بناء شبكة سدود على نهر اليرموك ووادي الرقاد وشبكة طرق تصل الأطراف بالمراكز وتغذية المنطقة بالكهرباء والماء بعد عام 1967، بالإضافة إلى تسهيلات وامتيازات حصل عليها سكان المنطقة، أولاً لكونها منطقة حدودية ووجود قرار مركزي بضرورة توطين السكان فيها بعد ظهور علامات نزوح لاسيّما عقب مرحلة احتلال الجولان، والسبب الثاني أنّ هذه المنطقة كانت تضم الكادر الأكبر من قاعدة حزب البعث على مستوى سوريا بأكملها.

غير أنّه في السنوات الأخيرة، ظهرت طبقة اجتماعية جديدة نتيجة الفساد المنتشر ضمن وظائف الدولة وأطرها، وانتشرت هذه الطبقة في كل المنطقة الجنوبية، ولم تكن منفصلة عن شبكة الفساد المؤسسة في كامل سوريا والتي كانت تنتمي لمنظومة واحدة ومشغّل واحد. وقد شكّلت درعا المدينة بؤرة هذا الفساد الذي جمع بين عمليات التهريب والحصول على الخوات من المعابر الحدودية والرشاوى. وفي ظل فساد منظومة القيم وتشوّهها، تصدّرت هذه الفئة الجديدة الواجهة الاجتماعية، بل أنّها أعادت صياغة النظام

¹¹ - عصام خفاجي، ولادات متعسّرة: العبور إلى الحداثة في أوروبا والمشرق، القاهرة - المركز القومي للترجمة - 2013 - ص ص 501-523.

الاجتماعي من خلال شراءها للأراضي ونمط حياتها وبناءها للقصور، وقد كان ذلك أحد أسباب التوتر الاجتماعي وعامل من عوامل التصادم مع السلطة التي انحازت لهم على حساب الفقراء المهمشين .

التحصّر وأثاره

شوّه التحصّر العلاقات وشوّه التمدن القدرة على التكيف. فقد دخلت وسائل المدينة بكثافة ولم يبق ما يشير إلى عالم القرية في الجنوب سوى حجم القرية ذاتها، فيما تحولت كل أدوات العيش وجزء كبير من القيم إلى متحف التراث، وقد حصل هذا الأمر بسرعة قياسية لم تتجاوز العقدين من الزمان، كان خلالها مطلوباً من القرية إنجاز هذا التحول.

وهو الأمر الذي ربّب الكثير من الإشكاليات على صعد عدّة أدت إلى تدمير الكثير من التراث، وأثرت بشكل واضح في العلاقات العائلية وضعف منظومة القيم. حيث أنّ الانفتاح والتحديث الحاصل ارتكزا على قضايا ومظاهر شكلية ولم يرافقهما تطور علمي وثقافي، بل انحصرا في أطر الاستهلاك والتقليد للمدينة. صحيح أنّ المنطقة شهدت نسب تعليم عالية ونسبة مرتفعة من خريجي الجامعات والدراسات العليا، غير أن ذلك ضمن أطر محددة كالعامل في السلك التعليمي والأعمال الروتينية التي لا تحتاج مهارة، وقد زاد ضعف النظام الاقتصادي وتوجّهه إلى الاستهلاك وعدم الإنتاجية في ترسخ هذا الأمر.

وقد انعكس ذلك بدرجة كبيرة على علاقة الفلاحين بالأرض التي تراجع العمل فيها بشكل ملموس وتراجعت إنتاجيتها وجرى هجرها من قبل الأيدي العاملة. حصل هذا الأمر في ظل عدم وجود بديل اقتصادي أو نمط إنتاجي جديد، فلم تقم الصناعة في الريف الجنوبي بسبب بعد الأسواق وعدم توفر الأيدي الماهرة والحرفيين اللازمين، فيما تحوّلت استثمارات أهل المنطقة إلى قطاعات خدمية بعينها كما النقل، أو استهلاكية كتجارة التجزئة.

وقد أدى هذا التحول السريع إلى سرعة في التكيف مع الانحراف الكبير باتجاه الفساد، للمساعدة على تغطية النزوع الاستهلاكي المتفجر في مجتمع لم يتخلى بعد عن الذهنية التقليدية التي تقوم على التفاخر بالبذخ والرفاهية والمركز والسلطة. ولم تكن هذه الوضعية عاملاً مساعداً في تطوير منظومة القيم التي بدأت تترنح بين القديم الذي تمليه ضرورة الحفاظ على مرتكزات الشرف والتي يتم اختصارها غالباً بعزرية المرأة والكرم الاستعراضي، وبين خروج المرأة إلى سوق العمل بكثافة سواء في الأراضي الزراعية أو في مؤسسات الدولة.

وقد نتج عن هذا التعارض القائم ظهور نمط ديني معاكس بمثابة استجابة لهذه الصدمة، وانتشر بشكل لافت بين أوساط الشباب في حوران نمط من التشدد الديني لم تكن تعرفه هذه البيئة، وصار له تأثيره على نمط بناء المنازل التي باتت تميل إلى النمط المدني المغلق وفي المناسبات التي كانت تجري بشكل مختلط.

في المحصلة، فإن التحصّر افتقد للشروط الصحيحة في هذه المنطقة، كما افتقد للحامل الاجتماعي، لاسيّما أنّ من كان لديهم رؤى وتصورات تقدمية هاجروا إلى العاصمة وانخرطوا في نمط حياتها وقطعوا صلاتهم مع جذورهم في شكل لا يخفي نزعة الاستعلاء، فيما تركوا لمن هم أقلّ رؤيوية واستشراقاً تشكيل منظومة القيم، أو بالأحرى نقلها من النمط القديم إلى شكل مشوّه تائه بين التحديث الشكلي والانتقائي والانغلاق في مواجهة التطور الممنهج. وعلى ذلك فإنّ التحصّر لم يحطّم البنية التقليدية والعائلية بل أعاد تشكيلها وصياغتها بمنطق جديد وصور مستحدثة.

علاقة العشائر بالسلطة

إنّ التغييرات التي طرأت على المجتمع الجنوبي السوري، مثل الزيادة السكانية والنزعة الحضريّة ونمو البيروقراطية وتساعد النزعة العلمية والانفتاح على العالم الخارجي والتقدم التكنولوجي والتوجّه الرأسمالي والنزوع النسبي إلى الفردية وغيرها جميعاً، أدت إلى إضعاف التماسك الشكلي للبناء "العوائلي" والعشائري، لكنّها لم تلغ التماسك الجوهرى المتمثّل بالولاء للعشيرة "العائلة".

وبينما كان الولاء العشائري يعبر عن وضعيّة تاريخيّة مشروعة فيها وظائف اجتماعية وسياسيّة هامة مثل تأمين الحماية والأمن والهوية، إلا أنّه يعتبر في الوقت الراهن مؤشراً على عدم تبلور البنى السياسية والاجتماعية المعاصرة على نحو متكامل.

وفي فترة معاصرة بدأت بالظهور أنظمة منافسة كالحكومة والجيش والعمل وهي أمور أساسيّة بالنسبة للمسائل الاقتصادية، وبالتالي كان على زعامة القبيلة أن تستند إلى واحدة من هذه البنى الجديدة أو إلى القبيلة أو إلى كليهما. وهكذا، ضعفت أهميّة العشيرة كمصدر وحيد للولاء لكن ذلك لم يبلغه على الإطلاق، إذ تشير الوقائع إلى أن الولاء العشائري متوغل في كافة الأنساق المجتمعية ويحول دون إكسابها صبغة حدائية على المستويين التنظيمي والقيمي، ومن هنا فإن تفسير الظواهر والمشكلات في سوريا، وفي الجنوب تحديداً لا يبتعد كثيراً عن ركائز بنيتها التقليدية.

لقد أدت "العوائل" العشائر السورية عموماً دوراً مركزياً منذ تأسيس الدولة وعلى مر العقود السابقة، حيث شكّلت هذه البنى الاجتماعية أحد أعمدة الاستقرار السياسي التي اعتمد عليها الحكم في مواجهة الأزمات السياسية الداخلية والخارجية. وبقيت العشائر البدويّة والقرويّة مصدراً أمنياً مالياً للنظام السياسي يعتمد عليها في المؤسّسات الحسّاسة لاسيّما الجيش والأجهزة الأمنية وحزب البعث الذي أدى دور القناة بين المجتمع الجنوبي ونظام الأسد في سوريا.¹²

وقد ساهم البرلمان، بوصفه أحد المؤسّسات الوسيطة، في ترسيخ علاقات العشائر بالسلطة، كما ساهم في إعادة صياغة الهوية العشائريّة، ذلك أنّ وحدة المصلحة العشائريّة أفضت إلى صيغة من وحدة الهوية لدى أعضاء العشيرة. ولذا فإن انتكاسات العشيرة المتعلقة بالهوية والنفوذ والاعتبار الاجتماعي تعتبر انتكاسات لكل فرد من أفراد العشيرة. وبالمقابل، فإن انتصاراتها تعتبر انتصاراً لكل فرد من أفرادها. ولقد أثبتت تجربة الانتخابات النيابية باستمرار أنها تعيد إنتاج العلاقات العشائرية، وأنها تعتبر العامل الحاسم في وصول المرشح إلى قبة البرلمان.

تاريخياً تتميز عائلات الجنوب السوري بنشاطها وانخراطها في العمل الحزبي منذ الاستقلال. ومن المعروف أنّ الأحزاب القومية وجدت بيئة خصبة في حوران والقنيطرة، وقد كان للحزب القومي الاجتماعي السوري أعضاء ومناصرين كثر في المنطقة الجنوبية، كما أن حزب الاتحاد الاشتراكي الناصري حقّق انتشاراً على نطاق واسع في المنطقة، وبعد وصول حزب البعث للسلطة عام 1963 كان له انتشار واسع في المنطقة، وذلك لأسباب بعضها يعود لتعلّق أهل المنطقة بالأيديولوجيا القومية وشعاراتها لاسيّما وأنهم الأقرب إلى فلسطين، وبعضها الآخر لأسباب مصلحة طمعاً بالخدمات والوظائف.

12 - الحوار المتمنن، عزو محمد عبد القادر الناجي: من يحكم سورية الطائفة العلوية أم الأسرة الأسيديّة" الجزء الأول" تاريخ المشاهدة 3- 8 - 2012.

https://www.google.jo/url?sa=t&rct=j&q=&esrc=s&source=web&cd=1&cad=rja&uact=8&ved=0CCEQFjAAahUKEwjdgLdwO_GAhXDbR4KHbo2BYM&url=http%3A%2F%2Fwww.ahewar.org%2Fdebat%2Fshow.art.asp%3Faid%3D318410&ei=3vKvVd2ZH8PbebrtJgl&usq=AFQjCNGxSbH2Ix-kwBwJYojl0qLS2B6E8Q

وبحسب إحصائيات حزبية داخلية فقد بلغ عدد الكوادر الأعضاء العاملين من البعثين في درعا وريفها عشية انطلاق الثورة بحدود تسعين ألف، وهو رقم كبير إذا ما أضفنا لهم الأعداد الأخرى ممن يملكون صفة النصير والصديق وهي مراتب حزبية أدنى.

العشائر والثورة

منذ بداية أحداث الثورة في درعا شكّلت العائلة/ العشيرة مكوناً أساسياً فيها. وقد ظهر جلياً اصطفاً العشائر إلى جانب الحراك الذي حصل في البداية عملاً برابطة الدم وعرف «الفرعة». وخرجت الأمور مبكراً في درعا عن السيطرة، فالثورة بالأصل قامت انتصاراً لقيم العائلة "العشيرة" نتيجة استهتار موظفي نظام الحكم وعدم قدرتهم على إدارة الأزمة التي تسبب بها حبس الأطفال الصغار الذين كتبوا على الحيطان شعارات مناوئة للسلطة، على إثرها ارتكب مسؤول الأمن السياسي "عاطف نجيب" ابن خالة رئيس النظام "بشار الأسد" الخطيئة التي سنتسبب بإطلاق دينامية الثورة عبر جملة من التداعيات، والتي مسّت كرامة العشائر وأخرجتهم عن طورهم.¹³

ومنذ اللحظات التي انتشر فيها الخبر في أرجاء حوران، هبت العائلات من القرى والأرياف تحت شعار "الفرعة" لنجدة عوائل المدينة. وفي تلك الأيام بدأت تتشكّل مسألة الانتماء للعشيرة بطريقة جديدة، الولاء العشائري والإحساس بالدعم الوجداني الذي تقدمه العشيرة، والقدرة على حشد التضامن، فضلاً عن التشبيك مع العشيرة والانخراط التضامني في شبكة العلاقات العشائرية. ولأن الهجوم على درعا كان سريعاً ومكثفاً بقصد إنهاء الثورة قبل تمددها وانتشارها، فإن الاستجابة الموازية كانت بحجم التحدي الذي واجهته المكونات العائلية في درعا. وربما من مكر التاريخ بالنسبة للنظام أنّ العائلات الكبرى والمؤثرة في درعا هي من قاد شعلة الثورة وكان لديها القدرة على تقديم الزخم المطلوب من أبناءها وإمكاناتها والاستفادة من تحالفاتها وعلاقات المصاهرة والنسب مع العوائل الأخرى في المنطقة.

وقد سعى النظام في بداية الثورة للسيطرة على هذه الظاهرة ومنع تعزيزها بين العائلات، وذلك عبر زرع الفرقة بين العشائر ومحاولة استمالة بعضها مستنداً في ذلك إلى الطبقة الفاسدة المرتبطة به. وكاد أن ينجح لولا زخم الثورة وكثافة المشاركين فيها، وهو ما همّش بعض الأصوات التي اعترضت أو بطرقت أخرى جرى إخضاعها بالقوة. وقد اتّبع الثوار طريقة ممنهجة في ذلك من خلال القضاء على مراكز الأمن ومخبريها المنتشرين بكثافة في مختلف النواحي الحورانية. وظهر أن النظام أسس على طول المدة الزمنية لحكمه شبكة واسعة من المؤيدين له عن طريق مقرّات حزب البعث والمكاتب الأمنية وقام بتجنيد الألاف وزرعهم في البيئة الحورانية، وقد تكلف تفكيك هذه الشبكة جهود كبيرة وأرواح أزهقت على الطريق.

لم يتسنّى تشكيل هياكل سياسية تنظيمية للعشائر سواء لإدارة الثورة أو للإدارة المحلية في المناطق التي تحرّرت تبعاً من حكم النظام وآلت السلطة فيها للثوار. والسبب المؤكد وراء ذلك أن حجم النزوح كان كبيراً كما حالة عدم الاستقرار والتعرض المستمر للقصف، كل ذلك أدى إلى تمزيق المجتمع المحلي وتناثره ما بين اللجوء الداخلي للقرى المحرّرة والنزوح الخارجي باتجاه الأردن. واليوم يمكن وصف مجتمع الجنوب بالمجتمع المنكوب حيث تكاد المراكز الكبرى تكون فارغة من السكان. وكذا الأمر في

¹³ مركز أمية للبحوث والدراسات الإستراتيجية، عبدالله ريزان ود. عدنان ناصر، دور العشائر في الثورة السورية. تاريخ المشاهدة 9-4-2012.

<https://www.google.jo/url?sa=t&rct=j&q=&esrc=s&source=web&cd=1&cad=rja&uact=8&ved=0CCEQFjAAahUKEwJZr6WNv-GAhWIVh4KHcbDA-w&url=http%3A%2F%2Fwww.umayya.org%2Farticles%2F1184&ei=sPGvVdmXNoitecaHj-AO&usq=AFQjCNE8UuPQyGkpDB47grN0UWPYHPdJlA>

ريف القنيطرة، حيث نجد قرى بأكملها باتت بدون سكان. ومما زاد من تعقيد الأمور، انقطاع الخدمات الإنسانية من كهرباء وماء وطبابة بشكل نهائي. ولعلّ الشكل الوحيد الذي يظهر فيه الأثر العشائري هو القيام بأعمال الإغاثة والمساعدة والإيواء وخاصة في المناطق البعيدة عن قبضة النظام.¹⁴

لا تنتظم التشكيلات العسكرية في جنوب سوريا على أساس عشائري بل تنتظم في أطر أوسع وانتماءات بعيدة كل البعد عن الانتماء العائلي الضيق. صحيح أن الجزء الأكبر من تلك التشكيلات يقوم بمهام محلية وأن بعض العائلات لديها مشاركة أكثر، لكن هذا الأمر كان منفصلاً عن قضايا من نوع التحاصص أو الأفضليات. وإذا كان للعشيرة من دور في هذا المجال فهو المساعدة في ضبط العلاقات داخل تلك التشكيلات ومنعها من الانزلاق باتجاه الصراع والتنافس.

مستقبل العلاقات بين مكونات الجنوب

التأكيد على الولاء العشائري أو القبلي يُعاد انتاجه في معظم سوريا، وتُشكّل البنى التقليدية إطاراً مرجعياً للولاء، في ظل غياب دولة القانون كما المؤسسات والديمقراطية والمجتمع المدني وحقوق الانسان. بل إم حالة الغياب تلك تتفاعل جديلاً مع الولاءات التقليدية. فتارة، تدفع الولاء القبلي للظهور بذريعة أن البنى التقليدية هي الأكثر ضماناً في ظل الفوضى. وتارة أخرى، يُشكل الولاء المتعلق بحالة الدولة والمجتمع المدني وحقوق الانسان والفعل الاجتماعي المتشابه بين التكوينات الاجتماعية، عاملاً طارداً للولاءات التقليدية بوصفها عنصراً محفزاً على الفوضى والتفكك.

ومع أهمية الوظائف الاجتماعية التي تقوم بها هذه الولاءات في الحالة السورية الراهنة في ظل غياب الدولة وشيوع حالة الفوضى فإن هذه الولاءات تناهض حركة التطور الاجتماعي وتساهم في كبح جماح الحداثة بكل معانيها. فهذه الولاءات بما تنطوي عليه من قيم عقلية ومعايير للوجود والتفكير والممارسات تقاوم مختلف اتجاهات النهوض الحضاري والتكنولوجي، وتخلّ بكل إمكانات النقلة الحضارية الممكنة وتشكّل عامل هدم للتماسك.

وتشكّل حالة الفوضى والاعتداء على المكونات السورية، والتي تأخذ غالباً طابع الاعتداء الخارجي نتيجة مشاركة مكونات خارجية تحت عناوين طائفية وقبلية، بيئة خصبة لإعادة إنتاج الولاءات الضيقة في بيئة تقليدية مثل بيئة الجنوب. ورغم تأكيد الغالبية من استحالة عودة النظام القديم أو القبول به تحت أي مسمى أو ذريعة، فإنه لم يتبلور حتى اللحظة نموذج بديل ولا حتى صيغة لإدارة العلاقات وضبط الصراعات الاجتماعية. صحيح أن للمجتمعات التقليدية أعرافها التي تشكّل قوانين بديلة لكن ذلك لا يشكل بأي حال من الأحوال بديلاً عن المؤسسات الدستورية والسياسية.

ولا يظهر في الجنوب إمكانية سيطرة عشيرة "عائلة" وقيامها بضبط الأمور، وذلك بسبب تقارب حجم هذه المكونات ونسب تأثيرها، وعدم التفكير بهذا المنطق انطلاقاً من حقيقة أن المجتمع الجنوبي مجتمع ممأسس ومنخرط في مؤسسات الدولة منذ أكثر من نصف قرن.

ولم تكن المظاهر الموازية من أعراف وتقاليد قبلية سوى ممارسات رمزية تلجأ لها العوائل لتعزيز أصالتها وترسيخ مكانتها الاجتماعية كنوع من رأس المال الاجتماعي الرمزي. والملاحظ في الجنوب

¹⁴ - للإطلاع على تجربة الإدارة المحلية بعد الثورة: مركز عمران للدراسات الإستراتيجية، مجلس محافظة درعا: التشكيل خارج الحدود 10-1-2015

<https://www.google.jo/url?sa=t&rct=j&q=&esrc=s&source=web&cd=3&cad=rja&uact=8&ved>

اليوم هو تركيز المجتمعات المحلية على تجاوز الكارثة وإعادة لملمة العائلة أكثر من التفكير بأي شيء آخر. وتتنظر هذه المجتمعات إلى أطر المعارضة بوصفها بدائل محتملة ومقبولة.

التحديات التي تواجه مجتمع الجنوب

بما أن الأعمال العسكرية هي التي تشكل الواقع الراهن للمنطقة وتصيغه، فإن منطقة الجنوب تبدو شديدة التأثر بهذه الحالة نظراً لاعتبارات جغرافية وسياسية. وتتنصب اليوم جملة من المخاطر من شأنها التأثير على الوضع الاجتماعي عموماً في هذه المنطقة:

- احتمالات حصول صراع طائفي بين المكونين السني والدرزي الذين يتجاوران في بيئة جغرافية واحدة. وهناك مؤشرات بدأت تلوح في الأفق عن إمكانية هذا الصدام، والمقدّر في حال حصوله زيادة تفكك ونكبة المجتمع الجنوبي.
- حصول صراع بين الفصائل المقاتلة والتي يبلغ تعدادها العشرات. وهذا الصراع سينسحب على الواقع الاجتماعي باعتبار أن أعضاء الفصائل هم من أبناء العوائل، وهو ما يندرج بتفكك النسيج الاجتماعي في هذه المنطقة.
- سيطرة الفصائل الإسلامية المتشددة، جبهة النصر من الغرب وتنظيم داعش من الشرق من جهة السويداء. وهذا الخطر محتمل في حال استمرار الأزمة وقت أطول ما يعني معه تفكك وزوال القوى المعتدلة التي لا تزال قادرة على ضبط الصراع ومسك زمام الأمور في المنطقة والتصدي للقوى المتطرفة. وفي حال حصوله سيعني مزيداً من هجرة أبناء المنطقة باتجاه الأردن ذلك أن المجتمع الجنوبي لا يستطيع التكيف مع نمط الإسلام الذي تعتنقه تلك التنظيمات.
- إصرار إيران و"حزب الله" على ضم هذه المنطقة إلى مناطق سيطرة "حزب الله" ولاسيما أنها تتجاور من جهة القنيطرة مع مناطق سيطرة "حزب الله" اللبنانية، ونظراً لغناها المائي وصلاحياتها لتوطين عشرات آلاف الشيعة من الأفغان اللاجئين في إيران، ولاستخدامها كورقة ضغط بوجه إسرائيل الملاصقة لها جغرافياً.
- تلميحات إسرائيلية عن إمكانية تأسيس شريط حدودي آمن في هذه المنطقة كترتيب احترازي في مواجهة مآلات الأزمة في سوريا وهو ما يعني خلق منطقة عدم استقرار ومواجهة وما يترتب عليه من تمزيق للمجتمع الجنوبي.
- استمرار الأزمة السورية دون حل، وهذا يعني استمرار استهداف المنطقة بمختلف أنواع الأسلحة وبقائها تحت الحصار مما يعني تفريغها سكانياً وتغيير تركيبها الاجتماعية بشكل نهائي.

1. عوائل درعا

من أهم العوائل في درعا و جغرافية انتشارها:

- عائلة المصري: في خربة غزالة وعتمان و داعل و بصرى وكثير من قرى حوران.
- عائلة الحريري: في الحراك وبصر الحرير وداعل وإبطع وصيدا وكحيل والصورة وعلماء.
- عائلة الرفاعي: في أم ولد والغارية الغربية وداعل والحراك.
- عائلة الزعبي: في المسيفرة والطيبة ودير البخت.
- عائلة المقداد: في بصرى الشام ومعربة وغصم .
- الصمادي: في قرية صماد.
- البلخي: في بصرى الشام.
- الكفري: في معربة وبصرى الشام.
- العمارين: في نوى والحارة.
- السعدي: في دير العدس وكفر شمس.

أما العائلات التي تقطن المدينة فهي: المسالمة والمحاميد والأبازيد وأبو نبوت وبجوج والقورة والأكراد والخطيب والجوابرة والحوالدة والهنداوي.¹⁵

2. المسيحيون في درعا

ويتركز وجودهم في مدينة درعا "المحطة" في منطقة شمال الخط الحديدي، وفي مجموعة من القرى الشرقية إذ لا وجود لهم في المناطق الغربية. وأهم قرأهم "خبب وبصير وتبنة ورخم ونمر وطيسيا وسمج" وقرى مختلطة مثل "إزرع ومعربة وشقرا والشرايع". كما يوجد عدد من القرى المسيحية تتبع إدارياً لمحافظة السويداء لكن سكانها يتكلمون اللهجة الحورانية ويمارسون تقاليد أهل حوران كما أن تواصلهم مع درعا أكثر بكثير من تواصلهم مع السويداء، ومن هذه القرى "صما الهنيدات وحربا وجمرين".

وباستثناء طقوس الديانة المسيحية، يندمج المسيحيون ضمن منظومة العادات والتقاليد السائدة في المنطقة الجنوبية. ومن أكبر عوائلهم في درعا "دحدل وفلوح والجوابرة وبشارة والسمارة والذيب والعجوري والعكة وزراعنة والخوري وقريط والحاتم والفريخ وفلوح ومهنا وقرقيش وسليمان والعيازرة والشناعات والدهيم و النصر الله والقنديل والبشارة".

3. خريطة توزع العائلات الحورانية

وقد تشكلت هذه الخريطة في القرن التاسع عشر حين اجتاح الوهابيون حوران ودمروها وشردوا أهلها وقد دخلت معهم قبائل "الرولة". وفي نفس العام رحل قسم من آل "سويدان" من السويداء إلى بصرى الشام وسكنوا مع "المقداد". كما رحل آل "الربداوي" من شعارة إلى الشيخ مسكين ثم إلى خربة غزالة وطفس بعد هجوم شيخ "الفحيلي" عليهم وطردهم. وفي عام 1829 م رحل آل "دحدل" وآل "السويدان"

¹⁵ تاريخ حوران / ويكيبيديا .

من السويداء إلى خربة غزالة. وفي فتره لاحقه رحل آل "الكفري" من قرية الكفر إلى جمرين ومعربة وغصم. ورحل آل "الشنور" من قرية شنيرة إلى الكرك. ورحل آل "المفعلاني" من مفعلة إلى غصم وكحيل ودرعا. ورحل آل "العتيلي" من قرية عتيل، وآل "كبيوان" من صلخد إلى طفس. وآل "العاسمي" من قرية عاسم إلى داعل. وفي عام 1827 م حصل صراع بين "الولد علي" وعشيرة "بني صخر" للسيطرة على مراعي حوران.

أما في منطقة إزرع فقد استقرت العائلات التالية: "الحروب والسامرة والعييد والشوكة والحلقي والزعي والحريري والخوالدة والعزام والطراد والجباوي والسويدان والنصر الله والزرعي والعساف والريشان والنصير وقلاب ومعتوق وجريس وغيث وعازر".

أما في منطقة القنية وإنخل ومحجة فقد استقرت العائلات التالية: "السعدي والجباوي والزعي والصلاخدة والحمصي والخوابرة والفروان والوادي والمصري والبرماوي وخطيب وعبيدي وناصيف وغازية والمجاريش والقطليش والزهرية والصيص والشبلي والحمود الحمد وحجازي والعقدة والحوشان والهلال والعساف والشحوم والسويدان ومذيب وأبو سمرة".

أما في منطقة الحراك والحريك وعلما والصورة فقد استقرت العائلات التالية: "الزعي والحريبي والمسلماني والعمارين والقдах والحريري والزاييد والسلامات والمصري والعدوي والكسابرة والزامل والخيرات والعساكرة والحمادين والعساف والتركمان والفلوش واليحيى والفاضل والغوثاني والكراد".

وفي منطقة خربة غزالة استقرت العائلات التالية: "الحاج علي والزعي والبيدي والبقاوة والعمور ومسلماني وأبو نقطة والكنعان". أما في منطقة خبب وبصير وتبنة ورخم، فقد استقرت عائلات الغساسنة المسيحية ونذكر منها: "الذيب وقريط والخوري والخلاف والعكة والفريجات والحاتم والزراعة والذهيم وفلوح ومهنا والعيازرة والشاهين والفايد والسلامة والشناعة والعيد والعجوري والقنديل والسهوانة والهياتنة".

أما في منطقة جباب فقد استقرت العائلات التالية: "التركمانى وأبو حوى والكنهوش والمصري والسلامة والزعي والزنبوعة والعواد والمطرود والوادي والرفاعي والحسن والحمصي ودلول والجمعات". وفي منطقة الصنمين استقرت العائلات التالية: "العتمة والفلاح والكلش والمصري وخطيب والنصار والذياب".¹⁶

4. أماكن العبادة الشيعية وتوزعها

انتشرت في درعا عدداً من الحسينيات الشيعية بشكل واضح بعد أن لم يكن في المحافظة أية حسينية على الإطلاق، ومن هذه الحسينيات: "حسينية حي المطار" وهي أول حسينية بنيت في المنطقة منذ العام 1967 مجاورة لمسجدين. ومن الأمثلة أيضاً "حسينية بصرى" في مدينة بصرى الشام و"حسينية الشيخ مسكين" و"حسينية المليحة الغربية" التي أدى بناءها إلى انعزال الشيعة عن السنة. وكذلك "حسينية الوحدة" في بلدة قرفة، و"حسينية طفس" في مدينة طفس. واللافت للنظر في أمر التشيع في درعا هو ظاهرة "زيدان غزالة" من بلدة قرفا، ابن عمّ اللواء "رستم غزالة" الذي تخرج من كلية الشريعة في جامعة دمشق، وانضم إلى جماعة الإخوان المسلمين في أول الأمر ثم تركها إلى حركة "المرتضى" ثم تشييع علناً وبدأ الدعوة للمذهب الشيعي، فقد كان يتلقى دعماً مالياً من إيران، ويقدم إغراءات مادية

¹⁶ بوابة المجتمع المحلي لمنطقة إبطع، زكريا نصيرات - سكان حوران منذ 2500 عام قبل الميلاد.

للشباب. كان "زيدان" إماماً وخطيب مسجد علي بن أبي طالب في حي الزاهرة بمدينة درعا، وهو مسجد سُني استولى عليه زيدان في عام 2007.

وهناك جالية شيعية عراقية في محافظة درعا كانت قد استقرت فيها قبل سقوط بغداد في عام 2003، واستمرت في النمو، حتى بات هناك شارع كامل في مدينة درعا يشغله التجار الشيعة العراقيون، بنى هؤلاء حسينية وألحقوا بها مرافق عدة. ولقد جرت عمليات تشيع في عدد من البلدات والقرى التي لا توجد فيها حسينيات كبدة "الصورة".

5. القنيطرة: عشائرها وطوائفها وقومياتها

- آل فضل

من أكبر قبائل الجولان وأقدمها وفيهم الإمارة. وهم أقارب أمراء آل "أبو ريشة" في منطقة معرة النعمان، وتمتد حدود مناطق آل فضل في الجولان من وادي الرقاد شرقاً إلى الغرب من مدينة نوى حتى أواسط سهل الحولة غرباً، ومن المنصورة جنوباً حتى بلدة بانياس شمالاً. وتوجد فروع آل فضل في وادي العجم والبقاع اللباني وسهل الحولة ومرج ابن عامر، ومشيختهم في آل فاعور، ومنهم: "آل عيسى وآل مهنا والباحاترة والهوادة والعجامة أو العكارمة والهلالات والعطيرات والشحاشبة والبلاحة والنبهان والكيار والفنوص والربيع والشراعية والمنادلة والحماله والربايعة والحمدان والحروك والكواشية وغيرهم". ولقبيلة آل فضل غزوات مشهورة ومعارك مع الدروز وشيعة جبل عامل والوافدين من الأكراد والشركس.

- النعيم

عشائر القسم الأول المستقرة هي: "الأبونمي والخواشمة والعويشات والفواخرة والسبارجة والغرة والوهبان والبيكار والشفاقين البو عاصي والرميلات والحناحنة والسياد والهوريين والسنيذ والنعيمات الكريدين والعاولة بالإضافة لعشيرة الفخر ومنهم الطحان. وهذه العشائر مستقرة وتملكة في قرى الجولان مثل كُودنة والسويسة والناصرية ورسم العظام والبطمية والرفيد والمعلقة وغدير البستان وسبينة وقصيبة والهجة والأصبح والعشة والعامودية والمشرفة. وتوجد في الجولان عشائر أخرى مثل: المرازقة والويسية والكبايرة والجعاتين والرفاعية والمنافي والقصيرين والسبارجة والطوايف والطرشان والحزوميين والمحمدات والسعيد وبنو خالد واللهيب. وهذه القبائل مستقرة وتربي الأبقار إلى جانب الأغنام وتعتني بالزراعة أيضاً¹⁷

- العائلات الدرزية في القنيطرة

آل ركاب وآل أبو سرحان وحسون وبرجاس وأبو مرة وزغيب وبدر الدين ومرشد.

¹⁷ محمود السيد الدغيم النعيمي، الخريطة الاجتماعية للقبائل السورية: مجتمع العشائر يفوق مجتمع المدن إنتشاراً، جريدة الحياة - العدد- 17679 - 30-8-2011

- التركمان في القنيطرة

القادرية أكبر قرى التركمان في القنيطرة وتقع في وسطها، وكانت مركز رئاسة العشائر التركمانية ثم "سنديانة وعين القرية ورزانية وضبية وأحمدية وعين السمسم". وتقع هذه القرى إلى الجنوب من طريق دمشق / القنيطرة المؤدي إلى فلسطين. أما القرى التي تقع شمالها فهي "كفر نفاخ والمغير وحفر وحسينية التركمان وعين العلق وعليه". أما قرية عين عيشة فساكنها من قبائل "اليورك" هاجروا من الأناضول عام 1860، وتقع هذه القرية إلى الجانب الأيمن من الطريق المؤدي إلى الحمة فالأردن. ويقدر عدد سكان التركمان في الجولان بحدود 40 ألف، يقطنون اليوم بعد نزوحهم من قراهم واحتلال أراضيهم بعد حرب عام 1967 في أحياء مدينة دمشق مثل "المزة وبرزة وعش الورور والحجر الأسود والتضامن وجوبر والقدم وجديدة عرطوز والذبابية" ضمن أحياء سميت بأسمائهم، وقليل منهم سكنوا في حمص وحلب.

- العائلات التركمانية في الجولان

- عشيرة طورن: عشيرة كبيرة بالنسبة لتركمان الجولان، تسكن عائلاتها قرى القادرية وضبية و الرزانية، ولها تواجد في حمص وحلب وحماه والعراق وإيران، ويتفرع منهم عشيرة "الآغا" التي تقطن قرية القادري.
- عائلة عساف "عسفي": من قبيلة بني عساف التركمانية، و لها تواجد في قرى القادرية وكفر نفاخ وكذلك في لبنان والسويداء.
- عشيرة الشعابنة : وتواجدها في قرى "عين القرية والسنديانة والقادرية".
- عائلة كيخيا "كوخي": وتتواجد في قرى كفر نفاخ والعليقة وكذلك في دمشق وحمص واللاذقية.

أما العائلات التي تسكن قرية عين السمسم فهي عائلة "شباط وبيك وحمو". وفي قرية الحسينية تسكن عائلات "علم وهرجو وقره قشلي وجوربجي". وفي قرية المغير تسكن عائلات الظاهر وشبرق وغازلي. وفي قرية حفر تسكن عائلات "ناصيف وجابر وصلان وساميز وشديد وفاصل". أما العائلات التي تسكن قرية عين عيشة هي عائلات "حاج علي و حاج قاضي وغزل أوغلي وهورزملي وطاب وحاج حسن وإيش". بالإضافة إلى عدد من العائلات التي تسكن في قرى الشركس مثل: "جويزة والخشنية الغسانية وعين زيوان والقنيطرة"، عاشوا مع الشركس واندمجوا في مجتمعاتهم وأخذوا الكثير من عاداتهم عن طريق الزواج و التصاهر و المعاشة¹⁸. وتوجد عائلة واحدة تنتمي لعشيرة الشعابنة في قرية "جبا" شرق القنيطرة. يوجد العديد من عائلات التركمان في منطقة حوران "محافظة درعا" و تواجدوا في هذه المنطقة في العهد العثماني واندمجوا مع سكانها العرب ونسوا لغتهم الأم لكنهم لا يزالون يحافظون على أصولهم التركمانية. يتواجدون في قرى "نوى والشيخ مسكين والحارة والسهوة والجيزة ومعربا والحراك والغارية وأنخل"، و لهم صلات مع تركمان الجولان كعائلة "أبو السل" في نوى، و"التركمان" في درعا والسهوة والحراك، وعائلة "بجدل" في الحارة.

¹⁸ محمد خير عيد: عيون الزمان لمن سكن الجولان من عشائر التركمان، دمشق، مطبعة تركماني، 2004، ص ص 101- 137

- الشركس في القنيطرة

يتواجد الشركس في مدينة القنيطرة وريفها في بلدات: بئر العجم والخشنية والعدنانية وعين زيوان والمنصورة... وغيرها. "البريقة" يبلغ عدد سكانها حوالي 1350 نسمة، تندرج ضمن عائلات شركسية نذكر منها: "غش"، "شاكوج"، "أدل"، "الاحي"، "بجموقه"، "أبش"، "ترك"، "تسي"، "الأصه"، "خواط"، "شابسوغ"، "غونجوقه"، "زبة"، "بجوني"، "أباطة". ويعود أصل الشركس إلى قفقازيا في روسيا، وهم لا يزالون محافظين على تقاليدهم ولغتهم، وهم من المسلمين ويتحدثون العربية بطلاقة. بلغ عددهم سنة 1938 حسب مصدر فرنسي حوالي ألفين من سكان القنيطرة البالغ عددهم في ذلك الوقت ثلاثة آلاف نسمة، وقد زاد عددهم بعد هجرة شراكس الريحانية وكفرما الفلسطينيتين. أنتشرت مباني القنيطرة بشكل دائري، وما ميّز المدينة أنها كانت مقسومة إلى شطرين؛ الأول يغلب عليه الطابع الشركسي والداغستاني أما الآخر فيمثل الأحياء العربية والمسيحية. وتركزت مساكن الشركس في الأحياء الجنوبية والشرقية على الطريق الذاهب إلى فلسطين وأغلب بيوتها من القبائل الأديغية، وحرارة الداغستان المتجهة نحو المنصورة.¹⁹ بعد انطلاقة الثورة السورية وتباين مواقف الشركس منها نزح أغلب أبناء قرى القنيطرة إلى مناطق أقاربهم في قدسيا والكسوة ومرج السلطان في ريف دمشق. وتعمل الجمعية الشركسية العالمية على إعادة توطين جزء منهم في روسيا، ولاسيما أن عددهم الإجمالي في سورية يناهز الـ 150 ألف نسمة يتوزعون من خناصر في ريف حلب إلى حمص وحماة ودمشق، ويرفض الكثير من الشركس مغادرة سورية.²⁰

- العلويون في القنيطرة

هاجروا من شمال سوريا أيام السلطان العثماني "سليم الأول" بعد معركة "مرج دابق" التي وقعت قرب حلب عام 1516م بين دولة المماليك والعثمانيين. وأقاموا ثلاث قرى علوية هي: زعورة وعين فيت وطرنبجة "العجر" وجميع هذه القرى لا تزال محتلة ويقيم سكانها في مناطق عش الورور والتضامن والحجر الاسود ومساكن برزة في محافظة دمشق.²¹

6. التداخل والترابط بين العشائر داخل الإقليم الشامي

ثمة أمثلة يصعب حصرها في هذا المضمار، نورد بعضاً منها لتوضيح جزء من مشهد التداخل والترابط بين العائلات في هذه المنطقة.

- عائلات المقدادية

يقيمون في الأردن في "بيت إيدس" التي بنوها بعد قدومهم من فلسطين، ولهم أبناء عم في لبنان وحواران وغيرها.

¹⁹ موقع الجولان، محمد بدران - مدينة القنيطرة زهرة الجولان.

²⁰ موقع أورينت نيوز، 22-1-2013 ياسر الأطرش: هل حان موسم هجرة الشركس الى الشمال؟

²¹ أيمن أبو جبل - العجر قرية سورية محتلة طواها النسيان، موقع الجولان

- الصمادية

من أكبر قبائل منطقة جبل عجلون، يقيمون في عجلون و عنجرة والنعيمة وصماد بحوارن، وفي نابلس ولوبية شمال فلسطين، وفي صفد يعرفون ببيت مراد.

- الزعبية

إضافة إلى تواجدهم في قرى سهل حوران، يعتبرون من أكبر العائلات في شمال الأردن ويقيمون في الرمثا والشجرة والذنية.

- عائلات الشرع

يتوزعون بين خربة غزالة وطفس ودرعا المدينة، يقطنون في منطقة "حوراة" شمال الاردن.²² بعض تلك القبائل إستقرت في المنطقة مثل أجزاء من عشائر الشعلان في القنيطرة وغربي درعا، والرولة في شرق درعا.

كما أن عشائر اللهييب والوهيب والمواساة والنعيم والشمالنة كانت تنتقل بين شمالي فلسطين وجنوب سورية. وقد استقر الجزء الأكبر منهم في الجولان بعد احتلال فلسطين، ثم نزحوا إلى أرياف دمشق الغربية والجنوبية "خان الشيخ وسعسع ودروشة وخان دنون والسيدة زينب وسبينة".

ولا يقتصر الأمر على المكون السني في هذه المنطقة، ذلك أن عمليات التداخل والترابط موجودة لدى المسيحيين بشكل أكبر وأكثر انتشاراً، إذ إن غالبية معتبرة من مسيحي الشوبك والكرك في الأردن هم من أصول حورانية. ولا يزال قسم من عوائلهم يقيم في قرى سهل حوران، ويطلقون على بعضهم صفة أبناء العمومة، كما أن للشركس والتركمان تداخلات عائلية وروابط قربي في الأردن. حتى الدروز الموجودين في منطقة الأزرق ومدينة الزرقاء الأردنية هم فروع من أصول موجودة في الجنوب السوري.²³

7. أبناء المنطقة الجنوبية في مناصب سلطوية

بغض النظر عن طبيعة الأدوار التي أدوها أو الصلاحيات التي امتلكوها فقد كان لأهل المنطقة الجنوبية على الدوام حصة في بنية السلطة من خلال أبناء العوائل الذين تسلموا مناصب معينة.

"طعمة العودة الله" تولّى منصب الشؤون البلدية والقروية في عهد الجمهورية العربية المتحدة، "سليمان قداح" الأمين القطري المساعد لحزب البعث، "جابر بجبوج" عضو القيادة القومية لحزب البعث، "محمود الزعبي" رئيس مجلس الشعب ورئيس الوزراء، "فاروق الشرع" وزير الخارجية ونائب الرئيس، "وائل الحلقي" رئيس الوزراء، "فيصل مقداد" نائب وزير الخارجية، "رستم غزالي" رئيس شعبة الأمن السياسي، "طه الخيرات" معاون وزير الخارجية.

وقد شكل المسؤولين الحوارنة كتلة بارزة تم اقصاؤها عن السلطة في مرحلة الصراعات الطائفية والإقليمية بعد عام 1966 والتي انتهت بسيطرة الكتلة العلوية على السلطة في ذلك الوقت. وقد استقالت

²³ أنساب العائلات والعشائر الأردنية.

الكتلة الحورانية بعد هزيمة 1967 وكانت مؤلفة من الوزراء "صالح محاميد ومحمد الزعبي ومشهور زيتون". في حين جرى تهميش "أحمد سويداني" رئيس الأركان و"محمد الزعبي" قائد لواء الصواريخ الذي سيتم نقله بعد استلام حافظ الأسد للسلطة للعمل كسفير في فرنسا. ولعل أكبر منصب لشخصية حورانية هو منصب رئيس الجمهورية الذي تسلمه "أحمد الخطيب" في الفترة من تشرين الثاني 1970 حتى شباط 1971 عقب انقلاب حافظ الأسد فيما يسمى بالحركة التصحيحية.²⁴

²⁴ الحوار المتمدن : عزو محمد عبد القادر الناجي: من يحكم سورية الطائفة العلوية أم الأسرة الأسدية" الجزء الأول" 3- 8 - 2012.

عن الكاتب

غازي دحمان بكالوريوس علوم سياسية وينشر في الصحف العربية منذ عام 1995 وله كتابين: القدس في القانون الدولي والعلاقات العربية – الإفريقية

عن مبادرة الإصلاح العربي

تأسست "مبادرة الإصلاح العربي" عام 2005 كشبكة مستقلة من مراكز ومعاهد بحثية عربية وأوروبية وأمريكية. ورسخت المبادرة منذ تأسيسها انطباعاتاً قوياً في الأوساط البحثية ودوائر صنع القرار باعتبارها منتجة للمعرفة، من خلال الأبحاث، وبناء مجموعات عمل في دول مختلفة، وتطوير شبكة واسعة من الباحثين والنشطاء ممن يتقاسمون الرؤى الإصلاحية.

الأوراق الصادرة عن مبادرة الإصلاح العربي تعبر عن رأي كاتبها ولا تمثل بالضرورة موقف أو رأي المبادرة.

حقوق النشر محفوظة لمبادرة الإصلاح العربي.

كل إعادة نشر للورقة أو استخدام جزء منها يتطلب الحصول على موافقة المبادرة.

© مبادرة الإصلاح العربي سبتمبر / أيلول 2015

contact@arab-reform.net